شعيب عليه السلام

كان أهل مَدْين[1] عَرَباً يسكنون أرض مَعَان، من أطراف الشام، وكانوا يكْفُرُون بالله، ويُشْرِكُون به؛ إذ عبدوا الأيكة[2] من دونه، وصاروا يبخسون الناس أشياءهم، وإذا اكْتَالُوا[3] على الناس يستَوْفُون، وإذا كالُوهُم[4] أو وَزَنُوهُم يخسرُون.

بعث الله فيهم شُعيباً رسولاً، وآزَره بالمعجزات، وأيده بالبينات؛ فدعاهم إلى عبادة الله وحده، وأمرهم بالعدل، وحذّرهم عاقبةَ الظلم، وذكّرهم نعمة الله عليهم؛ إذ كثّرَهُم بعد قلة، وأغناهم بعد فقر، ثم خَوَّفهم من نقمة الله وعذابه إن لم يتبعوا ما أرشدهم إليه ودلهم عليه.

فاستهزءُوا بقوله، وسخروا منه، وتهكموا[5] به، وقالوا: يا شعيب، أصلاتك تأمُرُكَ أن نعبُدَ غير ما كان يعبدُ آباؤنا الأقدمون وأسلافنا الأولون، وتنهاك أن نعامل الناس كما نحبّ ونشتهي؛ فنَدَع ما درجنا عليه، ونشأنا فيه، وكثُرَت أموالنا من طريقة!

كيف تنهانا عن دِينٍ أَلِفْنَاهُ، وشَرْعٍ ورثناه، وأنت الراجحُ عقْلاً، السديد رأياً، الواسع حلماً؟!

ولكن شعيباً لم تبدُ منه جفوةٌ أو قسوة، بل تلطَّف في جدالهم، وآثر استمالتهم باللين، واجتذابهم بالرِّفق، وذكّرهم بما بينهُ وبينهم من صلة، فذلك أدعى لقبول النصح، والانصياع إلى الرأي، وأدلّ على الرغبة في الخير والحب للنفع.

ولما أنِسَ منهم ميلاً إليه، وظنَّ أن آذانهم تفتَّحت لسماع قوله، بيَّنَ لهم أن ظهورَ

---

(١) مدين: مدينة على بحر القلزم محاذية لتبوك.
(٢) الأيكة: الشجر الكثيف الملتف.
(٣) اكتال منه: أخذ منه وتولى الكيل.
(٤) كال: حدد المقدار بواسطة آلة معدة لذلك.
(٥) تهكم على غيره: إشتد غضبه وحمقه.

البينة له، وكثرة نعم الله عليه تَحُولَان بينه وبين الإنسياقِ إلى طريقهم، والاندفاع في غيِّهم، وتمنعانه عن التفريط في وَحْي الله والتهاون في تكاليفه، ثم أعلن إليهم أنه قد أوحِيَ إليه بالهُدَى، وأرْسل بالحق، وأوتيَ من الله الرحمة، وأرشد إلى ما لم يهتدوا إليه، وأنه لن يَني العمل بهذه الدعوة التي اختير لها وألقي إليه وحيها، على أنه لن يُكْرِهَهُمْ على اتّباع دعوته، ولا يأمرهم بشيء إلا رضيَه لنفسه، وهو الذي اشتهر بينهم بالحلم، وعُرِف فيهم بالرّشد، ثم هو لا يطلب منهم أجراً على هديهم، ولا جزاء على إرشادِهم، بل يريدُ إصلاحَ أمرهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

ومَنْ كان هذا شأنُه فهو أحقُّ أن يتّبعوه، وأوْلَى أن يقتفُوه، وليس له غرض خاصٌّ من دعوته، ولا مأرَب من وراء طلبتَه.

ولكنه أحسَّ نفورهم من نصيحته، ورأى منهم ميلاً إلى مخالفته، مع أنه لم يُبْقِ لهم شبهة، ولم يترك لهم حجّة؛ فظن أنهم إنما يأنفُونَ من متابعته، ويميلون عن دعوته، بَغْياً وحسداً، وبُغْضاً وكبراً؛ فنهاهم أن يحملهم ذلك على الانصراف عنه، أو تدفع بهم الرغبة في مجانبته إلى النَّأي عَمَّا يدعوهم إليه، وخَوّفهم باس الله وعذابه، وبيَّنَ لهم أن اقتراف المعصية وارتكاب الإثم لا يمنعهم أن يؤمنوا بالله، ويتوبوا إليه، لينْجُوا من العذاب ويتخطاهم العقاب.

ولما أظهر لهم فساد إعتقادهم، وبيَّن لهم عاقبةَ ظلمهم، وأيَّدَ قوله بالحجة البالغة والآيات البينة، لجؤوا إلى المراوَغَةِ في القول ومُدَافعة الحجة بالشتم. فقالوا له: إننا لم نَفْقه[1] كثيراً من قولك؛ لأنه ليس لكلامك سبيل إلى قلوبنا أو منفذ إلى عقولنا؛ فلتكُفَّ عن إثارة مَنْ هم في عزّة ومنعة، وأنت المستَضْعَفُ الذليل، ولم يمنعنا من أذَاكَ إلا مكانُ عشيرتك، وحرمةُ قَبيلتك.

ولكن شعيباً لم يُطأطِىء رأسَهُ أمام عزَّتهم، ولم يضعُف أمام قوتهم، بل هَبَّ يدفعُ باطلَهُمْ بحقه، ويمحق زُورهم ببينته، وتملكَتْهُ العزَّة بنصرة الله، وتَاهَ فخراً بمؤازرته، وأبان لهم أنَّ رهْطَهُ[2] لَيْسُوا أرْفع قدراً، ولا أشدّ قوة، ولا أمنع جانباً من الله الذي منحهم هذه

(١) نفقه: نفهم وندرك.

(٢) رهط الرجل: قومه وقبيلته.

القوة، وأفاض عليهم تلك العزة، وقال: هلا تركتموني رعايةً لحقّ الله، وحفظتموني إطاعة له؟! إن ذلك أولى من حِفْظِي لمكان قومي وعزّة رهْطِي.

لم يضعِفْ تهديدُهم قُوته، ولم يفُلّ وَعيدُهم من عزمه، بل دعاهُمْ أن يبذلوا ما يملِكُون من قُوَّةٍ لإيصالِ الشرّ إليه، وأعلن إليهم أنّه لن يألو جهداً في سبيل دعوته، ولن يدَّخر وسعاً في الوصول إلى غايته؛ فثِقَتُه بنصر الله أكيدة، وعاقبته عنده حميدة، وهو أعلم بما يعملون، خبير بما يصنعون.

دَأب شُعَيْبٌ على الدعوة إلى الله، فوجد من بعض القوم آذاناً صاغية وقلوباً واعية، وآمن به نَفَرٌ قليل، فهلعَتْ[١] نفوسُ القوم خِيفَةَ أن يعظم أمره، ويشتدّ ساعدُه، وينتَشر دينُه، وتكثر جماعتُه؛ فتوعَّدُوه ومَنْ آمن معه أن يخرجوهم من قريتهم، إن لم يَبْرَأوا من دينهم، ويعودُوا إلى ملّتهم؛ لكن شعيباً أنبأهم أنَّ هؤلاء الذين اتبعوه قد استرقَّ الإيمانُ قلوبهم، وملك عليهم مشاعرَهم، وخالط نفوسَهم؛ فلن يعودوا إلى حَمْأة[٢] الرَّذِيلة إلا كارهين، ولن يرجعوا عن عبادة الله طائعين، فقد أصبحت نفوسُهم تَعَافُ ارتكابَ المعاصي، بعد أن نجَّاهُم الله منها، وتأبىٰ أنْ تَتَرَدَّى في مهاوي الضلالة بعد أن أخرجهم الله من مَباءتها[٣].

ولما يئس من هدايتهم إلى الحقِّ، وتبيَّنَ إصرارهم على الكُفر، استنصر ربَّهُ عليهم، ودعاهُ أن يجزيَهُمْ على كفرهم وجُحودهم، وتضَرَّع إليه أن يعَجِّلَ لهم ما يستحقون من عذاب، ولكن القوم عن الحقِّ لاهُـون، وعلى الدنيا مقبلون، وعما خَبَّأ لهم القدر مُنْصَرِفون، فرجعوا إلى القوم المؤمنين، وأعادوا الكرَّة على مَنْ ظنُّوهم مستَضْعَفِين، وخَوَّفوهم الخسران إن تركوا الظلم، وعاملوا الناس بالقِسْط، وهدَّدوهم بالخراب إن لم يُطَفِّفُوا[٤] الكَيل والميزان، وحَذّروهم العُدْم[٥] إن لم يبخَسُوا الناس أشياءهم ويَعِيثُوا في الأرض مُفسدين.

---

(١) هلع: جزع وخاف.
(٢) الحمأة: الطين الأسود المنتن.
(٣) المباءة: المنزل.
(٤) طفف الكيل: بخسه ونقصه.
(٥) العُدم: الفقر.

ثم كَرُّوا على شعيب بالتكذيب، ونسبوا إليه الشعوَذَة والسحر، وتحدَّوه أن يُسْقِط عليهم كِسَفاً[١] من السماء، وأن يُنْزِلَ عليهم العذاب إن كان من الصَّادقين.

استجاب الله دعاءه، وآزَرَهُ بنَصْرِه، وابتلاهم بالْحَرِّ الشديد، فكان لا يروي ظمأهم ماءٌ، ولا تمنَعهم ظِلاَل، ولا تَقِيهم الأسراب[٢] والمنازل، ففرُّوا هاربين، وخرجوا من ديارهم مسرعين، ولكنهم فَرُّوا من قضاء الله وقدره إلى قضاء الله وقَدَرِه، فقد شَامُوا سحابةً ظنّوها من وَهَجِ الشمس واقية وحسبوها للحرِّ دافعة؛ فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بظلِّها، ويستروحوا فَيْئَهَا، حتى إذا تكَامَل عَدَدُهم، وتألّفَ جمعُهم، رَمَتْهُم يشررٍ وشُهب، وجاءتهم صَيْحَة من السَّماء وَأَحَسُّوا الأرض تَتَزلْزَلُ تحت أقدامهم، ففزعوا لهول ما رأوا، ولم يكادوا يحسَّون ما حلَّ بهم حتى أزهقت أرْوَاحُهم، وهلكت نفوسُهم.

رأى شعيب ما حلَّ بقومه، فأعرض عنهم، يُثْقِله الحزْنُ على ما أصابهم، ولكنه ذكر كُفْرَهم بالله، وتسفيههم لرأيه، واستهزاءهم بمن آمَنُوا معه، ومخالفتهم نصيحته، فخفّفَ ذلك من وَجْدِه، وتولّى عنهم ﴿وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾[٣].

---

(١) كسفاً: قطعاً.

(٢) الأسراب جمع سَرَب: وهو القناة الجوفاء التي يدخل منها الماء الحائط.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٩٣.